

غالب حمزة أبو الفرج

ذكريات لا تنسى

دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع



المكتبة الصغيرة

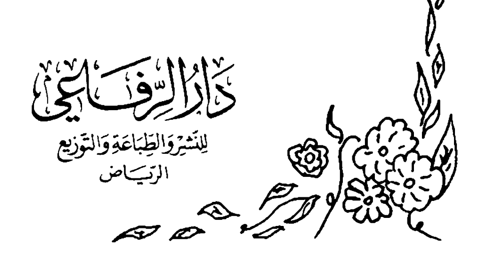
(٢٢)



ذكريات لا تنسى

ومجموعة قصص

غالب حمزة أبو الفرج

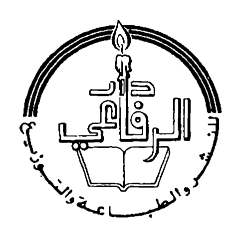


دار الرفاعي

للنشر والطباعة والتوزيع

الرياض

الطبعة الأولى: ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م
الطبعة الثانية: ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م



منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع
ص. ب: ١٥٩٠ ـ الرياض ١١٤٤١ ـ تليفون: ٤٧٨٨٨٣٣
تلكس: ٤٠١٣٦٧ (الفرات) ـ فاكسميلي: ٤٧٩٤٣٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

في الوقت الذى تزدهر فيه ألوان من الأدب العربي في عصرنا الحديث .. وتنمو وتبسق .. يظل لون واحد منها أقل نماء وازدهاراً وبسوقاً .. انه فن القصة بكل أنواعها .. من قصيرة وطويلة ، وتمثيلية ومسرحية .. و ..

ذلك لأن البارعين في هذا الميدان لا يزالون قلة نادرة .. لأن فن القصة نفسه ، بمفهومه الحديث لا يزال فناً ناشئاً في الأدب العربي .. وان كان بمفهومه الواسع فناً أصيلا فيه .. منذ عهد الأمثال العربية ، والأساطير العربية ، والفولكلور الشعبي .. وقصص المغازي وأحداث البطولات .. وقصص المقامات .. وحكايات ألف ليلة وليلة ..

وحينما أخذت القصة العربية تقف على قدميها في بعض الأقطار العربية كمصر وسوريا .. كانت هنا في المملكة العربية السعودية ، لا تزال نبتة بازغة تحاول أن تشق طريقها للظهور ..

وكان هناك عدد من الرواد .. لا أجد المجال متسعاً لذكرهم جميعاً .. كما لا أجد الذاكرة مسعفة .. ولكن بحسبى أن أذكر أكثرهم الحاحاً عليها ، واشتهاراً بها .. وهو المرحوم الأستاذ محمد عالم الأفغاني ..

ولكن القصة في بلادنا ، في الأونة الأخيرة ، وجدت لها سوقاً رائجة بين القراء .. كما وجدت عدداً طيباً من كتابها .. ومنهم من توفر عليها وعرف بها .. وكتب ألواناً منها .. بين القصيرة والطويلة..ومن أبرز هؤلاء الكتاب الأستاذ غالب حمزة أبو الفرج .. الذى نشر عدداً منها في صحف المملكة ، وفي الصحف والمجلات العربية خارج المملكة .. بل لقد نشرت قصصه في كبريات المجلات العربية في مصر ولبنان ، فلا غرو أن يُعد رائداً ناجحاً من روادها .. بل هو فيها كاتب هادف .. يكتب حينما يكتب ، جاعلا نصب عينيه ، خدمة المعاني الخيرة .. راصداً الحركة التحولية الهائلة التى تجتازها بلاده .. نحو الأخذ بأسباب العلم والتقدم .. والتطور الحضاري الواسع .. معمقاً الأهداف الانسانية التى يلتزمها الكاتب الذى يتقمص روح المصلح الاجتماعي ، دون أن يبرز هذه الروح ابرازاً يبعده عن الخط الفني للقصة ..

وهو مع استهدافه لكل تلك الركائز ، يظل محتفظاً بقدرته على السرد السهل المنساب .. منوعاً ما استطاع في الصور التى يرسمها .. وان احتفظ بأبطاله من صميم بلده .. ومن نماذج ظاهرة من انسانها ..

وهو لم ينس .. حينما زاول كتابة العديد من قصصه ورواياته أنه رجل أعلام .. وان هناك وازعاً داخلياً محضاً كان يلح عليه ان يرصد حركة التطور الحضاري في بلده .. فقد ظل ، لوقت طويل في مكان مرموق من مناصب وزارة الاعلام الرئيسية .

واذا كانت هذه الظاهرة جديرة بالتسجيل فان هناك أيضاً ظاهرة أخرى لا تقل أهمية عن هذه .. وهي سعة ثقافته واطلاعه .. ولعل أقرب مثل لذلك روايته (الشياطين الحمر) التى أبرز فيها حادثة (الأوبك) في سرد روائي جميل ..

و (المكتبة الصغيرة) .. التي قدمت ألواناً من الأدب السعودي ، فيها البحث ، والتاريخ ، والتراجم ، والشعر .. وعرفت العالم العربي ، بقدر المستطاع ، على عدد من الأدباء السعوديين ، حرصت ء لي أن يكون للقصة أيضاً فيها مكانها .. كما حرصت على أن تقدم من كتابها ، كاتباً بارزاً فيها .. له مكانته المرموقة .. وله فيها انتاج غير يسير .. وهو الأستاذ غالب حمزة أبو الفرج ، الذى أفضل بتقديم هذه المجموعة التى يجدها القراء بين أيديهم ..

حقاً ان هذه المجموعة ، من حيث الكمية ، لا تعد كبيرة أو كثيرة ، ولكنها ، من حيث القيمة والمضمون ، كافية للدلالة على المستوى القصصى عندنا .. وان كان هذا لا يمنع اطلاقاً أن يكون الأستاذ غالب قد قدم من القصص القصيرة ما هو أبرع وأمتع .. ذلك لأن أي انتاج أدبي انما يخضع لمؤثرات معينة تجعل بعضه أفضل من بعض .. ولكن المستوى العام يظل واحداً ..

وقد حملت هذه المجموعة اسم (ذكريات لا تنسى) وهو عنوان احدى قصصها .

ان الأدباء والكتاب في المملكة العربية السعودية يواكبون الحركة الأدبية في العالم العربي ، في اصرار وقوة ، ولا يخامرني أي شك أنهم سيحتلون ان شاء الله مكاناً مرموقاً في دنيا الفكر والأدب بكل ألوانه لا يقل عن أمثالهم في العالم العربي الفسيح ..

ومن الله نستمد العون والتوفيق ؟

الطائف ١٠/٩/١٣٩٧ هـ

عبدالعزيز الرفاعي


کلیات آتش

أمضت ثريا ليلة هانئة تعد حقائبها في رحلة طويلة تلتقى في نهايتها بزوجها خالد الذى تلقى العلم في جامعة بولدر بولاية كولورادو الأمريكية ، وأخذت تجول بناظريها في أطراف الغرفة وكأنها تلملم ذكرياتها التى مضت ، وتشبع أركانها لثماً وعناقاً وتقبيلا .

لقد عاشت مع زوجها تحت سقف البيت الذى ستنقل منه في الغد ثلاث سنوات متتاليات كانت بالنسبة اليها : أيام سعد وليالى بهجة . فلقد غلف الحب قلب الشابين اللذين واصلا مسيرتهما الدراسية بتفوق ، وكان خالد قد سبق زوجته في تحصيله العلمي فمضى يساعدها في انهاء دراستها ، وكأنهما على موعد مع لقاء آخر على أرض أخرى ، وفي معهد من معاهد العلم فيها .

وتذكرت أول لقاء بينها وبين زوجها ، في الطائرة وهي مع أسرتها لقضاء فترة الصيف في مصيف بحمدون في لبنان وهو برفق أسرته وأخته

في طريقهما الى استامبول ، وفكرت فيما بينها وبين نفسها : كيف التقت عيناها به ، وهي في طريقها الى المقعد الشاغر لتجلس بجانب أخته صديقتها وزميلتها على كرسى الدراسة .

لقد أمضت ساعات السفر في حديث طويل استعادت به وصديقتها أيام دراستهما التى بدآها سوياً : قد تكون الأيام هي التى جعلت سعاد تنأى بنفسها عن الدراسة بعد أن اقترنت بابن عمها ، وهي صغيرة ، لكن حبل المودة بين الاثنين كان لا يزال يشد كل منهما الى الأخرى ، وكانت صلات طويلة وأحاديث كثيرة عبر أسلاك التليفون وحتى أثناء زيارات عابرة تقوم بها سعاد الى دار صديقتها ثريا .

ومع هذا فهي لم تكن تدرى أن لسعاد مثل هذا الأخ الرائع . لقد بدا أمام ناظريها في تلك اللحظة كفارس أحلامها الذى طالما تخيلت أنه في الطريق اليها .

عينان واسعتان وجبهة عريضة ، ووجه دقيق

الملامح ، حاد النظرات وقامة طويلة بالاضافة الى شخصيته الجـادة التى تبدو من خلال كلماته الهامة التى يلقيها على مسمع والدته .

كان يشرح لها في هدوء مناظر الطريق ، وكأنه استاذ أجاد دراسة الجغرافيا ، وكانت تستمع الى كلماته بينما هي منصرفة الى حديث سعاد فعجبت بشخصيته وهدوئه ، وقـدرته على الايضـاح لهذه الأم التى لم تدرس مطلقاً في أي كتاب أو مدرسة .

لقد انقضت ســاعات الرحلة لتحط الطائرة في مطار بيروت ومضى كل واحد في طريقه ، هي مع ذويها وأسرتهـا الى خارج المطار ، وهو مع أختـه ووالدته الى قاعة الترانزيت

لـكن قلبهـا مع كل هـذا كان يحدثهـا بأنهما سيلتقيان مرة أخرى في بحمدون أما كيف سيكون هذا ؟ فهذا هو الشيء الذى لا تدريه : مجرد حدس احست به ، ينســاب في عروقهـا ليطمـئن قلبهـا الواجف ، شعرت بعده بابتسامتها تكبر على وجهها ،

وهي في طريقها الى لقاء بعض من أفراد أسرتها ، ممن سبقوها الى ذلك المصيف .

كانت يومها في السنة الأخيرة من مدرستها الثانوية ، وكانت تنتظر نتيجة امتحانها في صبر .

وفي فندق لامارتين ببحمدون ، حطت أفراد الأسرة بقضها وقضيضها في جناح من أجنحة الفندق الجميلة .

وكانت ثريا ترمق الأفق من خلال بلكونتها الخلفية الصغيرة ، تطالع قمم الجبال الشمة، ، وقد اكتست أشجارها الصنوبرية خضرة زاهية : تتطلع الى زرقة السماء الصافية ، تتحدث اليها بكلمات هادئة ، وكأنها تناقشها مستقبلها الذى لم يولد بعد .

وفي كل يوم تأخذها أقدامها في رحلة طويلة مع الضياع : هي التى كانت تأنس من ارتياد نوافذ المحلات التجارية الملآى بالعديد من ملابس النساء وقد رصت بعناية .



لكنها في هذه الرحلة : لم تعد في حاجة الى ذلك كله ، وانما كان كل همها أن تتعرف على أخبار صديقتها في استانبول ، لطالما تحدثت لوالدتها عن رغبتها في زيارة استامبول لكن هذه كانت تضحك في كمها دون أن تبدى شيئاً من ضحكاتها على وجهها ، لقد أحست الأم بما يعتمل في نفس فتاتها ، فأمسكت عن القول ، وبدت كامرأة لا تعي شيئاً مما تقوله ثريا .

وفي صالة الفندق الكبير اثر عودة ثريا من رحلتها اليومية تسلمت في لهفة برقية كتبت حروفها باللغة الانجليزية التى تجيدها ، وكان مصدر البرقية استامبول ، ففتحتها في عناية لتطالعها كلمات البرقية القليلة :

في الطريق اليك في بحمدون تهانينا بنجاحك .
سعاد

اندفعت ثريا في سرور الى والدتها تحمل اليها خبر البرقية ، وملء قلبها سعادة لا توصف ، اذن فهو يذكرها . وألا كيف استطاعت أن تعرف سعاد

نبأ نجاحها هي التى لم تعرف به .

وبعد ساعات ثلاث تلقت برقية أخرى كانت البرقية من أخيها هذه المرة يؤكد فيها نجاحها فامتلأت نفسها غبطة وسعادة ، وانطلقت الى البرارى تطوف بقدميها الأراضى البكر في انطلاق وحرية .

لقد تدفقت كل تلك الذكريات أمام عينيها دفعة واحدة ، وأخذت دمعة ساخنة تترقرق على وجهها ، وهي تضحك ، وأمسكت بمنديل ورقي أزالت به آثار الدمعة ، ومضت تجمع حاجياتها في هدوء ، لكن أفكارها لا تسكت بل تريد الانطلاق ، ونظرت الى المرآة التى بجانب سريرها ، وتحدثت الى نفسها هذه المرة ، عجيب أمر هذا القلب ، يخفق دائماً ، ويتذكر وهو عندما يحب لا يرضى بالنسيان ، وفي الطريق الى خارج الفيلا أخذ الشريط السينمائي يكبر أمام عينيها : فلقد تذكرت كيف كان اللقاء الثاني بعد وصول سعاد ؟.

وكيف اختارت سعاد فندقاً مجاوراً لفندقها ؟

وكيف أمضت هي وسعاد أيامهما الجميلة تتحدثان عن الحب الذى أخذ يكبر في قلب أخيها حتى ساعة صفو أعلنت فيها سعاد رغبة أخيها في الاقتران بثريا ، واستمعت الأم لكلماتها في صمت حتى اذا ما عاد زوجها من زيارته لبيروت ألقت بالخبر في أذنه والتقط الأب النبأ في سعادة ، فقد كان يعرف أسرة خالد ، وطلب من الأم أن تتعرف على رأي ثريا في الخطبة حتى اذا ما جاء خالد طالباً يدها استطاع أن يقبل أو يرفض .

لكن الأم لم تقل شيئاً وانما عادت بعد دقائق تعلن موافقتها . وسارت الأمور على خير ما ترجو ثريا وخالد .

واستقبل فندق لامارتين أول حفل زفاف سعودي ، واستمتع الناس في بحمدون بمظاهر الفرحة التى أخذت طريقها الى الفندق الكبير .

وكان حفل زفاف تحدث عنه الناس والصحف كثيراً . ومرت الأيام وكبرت السعادة في قلبي الزوجين الشابين ، وعادت ثريا الى بيتها الجديد

الذى انتقت كل جزء فيه بأسلوبها وطريقتها .
وها هي اليوم تغادر هذا البيت في طريقها الى المجهول .

أمضت ثريا ساعات الرحلة بين الرياض ولندن ، في شبه وحدة ، مع أفكارها تحادث نفسها تارة ، وتسترجع ذكرياتها تارة أخرى ، وفي مطار لندن التقت بواحدة من صديقاتها في طريقها هي الأخرى للقاء زوجها في نيويورك .

سعدت ثريا بهذا اللقاء واعتبرته فألا حسناً بالنسبة اليها ، فقد ساقت الأقدار هذه الصديقة لتجاورها المقعد في رحلة عبر المحيط .

وفي مطار نيويورك حطت الطائرة ، وأخذت الصديقتان طريقهما داخل المطار حيث جرت اجراءات الجمرك في هدوء ، وفي المكان المعد لانتظار الوافدين التقت عيني ثريا بعيني زوجها التى ومضت بألوان السعادة والحب ، واندفعت الى خارج المطار لتلقى بنفسها بين ساعديه .

كانت في قمة السعادة فها هي الأيام تجمع مرة ثانيـة بين القلبين الشـابين ولم تشعر ثريا بيـد صديقتها التى هزتها في رفق ، وأخذت تقدم زوجها اليها ، والى زوجها .

تعـارف الزوجان بعضهما على البعض الأخر ، وأخـذ الجميع طريقهم الى داخل مدينـة نيويورك لقضاء بضعة ساعات عادت بعدها ثريا وزوجها الى المطـار في طريقهما الى مطار دينفر ، وفي مدينـة بولدر الصغيرة اجتمع الاثنـان في الغرفة الأنيقـة التى استأجرها خالد في حرم الجامعة لتـكون عشهما الجديد خلال دراستهما في الجامعة .

وسارت أيامهما على وتيرة واحدة من السـعادة حتى دخلت بينهمـا صـديقة أوروبية من ألمـانيا بشعرها الأشقر وسحنتها الأوربية .

وكانت من أولئك الفتيات اللاتي يشعرن بأن الانسـان مجرد انفعالات نفسـية يجب ألا يقف في طريق تنفيسها عقبة أو حاجز .

وقد اســتطاعت بفطنتها وذكائها أن تتسلل الى البيت الصغير عبر صداقتها لثريا ، التى أحست بأن هذه الفتاة نوع جديد يختلف عن الفتيات اللاتي تقابلهن سواء في مدرجات الكلية أو في قاعة المكتبة ، وانصرفت ثريا في دراستها الاجتماعية ، وتفوقت بشــكل ملحوظ على عدد من الطلاب والطالبــات ، واستطاعت بجدها واجتهادها أن تنتقل الى مرحلة جديدة من التعليم العالى ، قابله زوجها ولأول مرة بشيء من الفتور عزته هي الى انشــغاله هو الآخر بدراسته التى بدأ يتعثر فيها .

لم تكن تدري أن عاطفــة جارفة أخذت تربط بين زوجها والفتــاة الأجنبية ويوم شعرت حاولت أن تغمض عينيها وأن تتناسى كل ما رأته .

لــكن هذا الأمر زاد الفتــاة الأجنبيــة عنــاداً وتصميماً ، فمضت في خطتهــا تلك ، وفي ذهنها أن الاسلام يجيز للرجل أن يقترن بأكثر من فتاة .

ويوم طردتها ثريا من شقتها الصغيرة خرج في أثرها خالد يحــاول أن يسترضيها لــكن الأخــرى

أصرت على ألا تدخل الشقة مرة أخرى .

أخذ حبل الوفاق بين ثريا وزوجها يتأرجح بعد هذه الحـادثة وكانت ثريا قد بدأت تناقش خالدا الحساب : وهي في جميع حوارها معه تحـاول أن تشرح له بأن أسباب تعثره في دراسته يرجع الى الحياة التى أخذ يعيشها ، لكن هذا قد صم أذنيه ، فلم يعد يسمع شيئاً واستمرأ الحياة الغربية بجميع مآسيها ، وأخـذ يتردد على الدور المشبوهة مع رفيقته ، وكل همه أن يقتنص اللذة من كل مكان .

لقد عرف الادمان على المخدرات ، هو الذى لم تمتد يده الى كأس خمر . وأخـذ يستمرىء هـذا النوع من الحياة مع رفاق السوء حتى جاء اليوم الذى ترك فيه زوجته وبيته .

أما ثريا فلم تحفل بالأمر ، بل مضت في تحصيلها العلمي ، وفي أحشائها ثمرة زواجها .

كانت تأمل أن يأتي الوليد طفلا ، فلم يبخل الله عليها بتلبية تلك الرغبة . ويوم ذهبت الى المستشفى لتضع طفلها الأول تلقت في المستشفى

خبر نجاحها في الماجستير ، فاستبشرت خيراً .

لقد ذهب خالد مع فتاته الأوربية ، وبقى خالد الصغير يؤنس وحدتها . وفي طريق عودتها الى بلادها التقت بصديقتها تلك التى كانت معها في رحلتها الأولى من لندن الى نيويورك ، كانت هي الأخرى في أجازة مع زوجها في طريقها الى جدة .

ومضى الحديث بين الاثنتين يأخذ طريقه بشكل أو آخر . لكن ثريا لم ترد أن تعطي أية فكرة عما جرى بينها وبين زوجها ، وفضلت الصمت على جميع أحزانها .

وفي مطار الرياض كان في استقبالها والدها وأفراد أسرتها التى كانت تنتظر على أحر من الجمر عودة ابنيهما من دار الغربة بعد رحلة طويلة دامت سنوات .

واستقبلها الجميع بالترحاب ، وأخذ والدها بيدها الى البيت الكبير لتلتقى بمجموعة أخرى من أفراد أسرتها الكبيرة .

لكن ثريا فضلت أن تمر على عشها الصغير لتمضى دقائق مع أحزانها في غرفة نومها التى ودعتها قبل سنوات .

وهناك التقت وجهاً لوجه مع صورة خالد ، التى اخذت تطالعها وتحاصرها من جميع الجهات ، فاغمضت أهدابها لفترة، وانتقلت بذاكرتها الى أيام السوء التى أمضتها في أمريكا . وتخيلت كل ما جرى فحمدت الله على أنها لم تعد خالية الوفاض من هذه الرحلة .

فشهادتها الكبيرة ستؤهلها للعمل في حقل التعليم ، وهي اليوم أشد حاجة للعمل من أي وقت مضى .

والتفتت الى أختها الصغيرة وكلها شكر ، فلقد حافظت هذه الأخت على جميع ذكرياتها في البيت الذى تحبه رغم كل ما جرى .

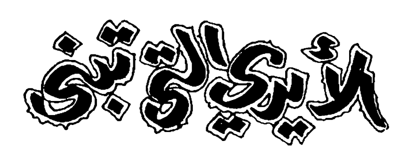
وأخذت تتنقل عبر جميع الغرف فرأت في احداها (هندولا) جميلا وضع في أقصى الغرفة بعناية،

والى جانبه شتى ألوان الصور ، وعندها توجهت الى أختها بالسؤال عن الهندول : ومن الذى أحضره ؟ وعندما عرفت بأن والدتها هي التى اختارته من أسواق الرياض ابتسمت من كل قلبها وقالت بينها وبين نفسها :

انها لا تنسى هذه الأم رغم جميع مشاغلها .

أمضت ثريا بعضا من الوقت في دارها الصغيرة ترمق الذكريات بنصف عين مفتوحة ، أما العين الأخرى فكانت في مكان ما ترمق بها أشياء أخرى :

وأطلت ذكريات الأمس القريب والبعيد معاً : لكن وصول والدها الى البيت قطع عليها تفكيرها فأخذت طريقها معه ، لتلتقى مع مجموعة من صديقاتها اللائي كن في انتظارها بعد طول غياب ، وفي السيارة سألها والدها عن خالد فلم تجب وانما أشارت الى طفلها الرضيع وقالت : هو الآخر اسمه خالد يا أبي ، وابتسم الشيخ العجوز وقال : لا عليك سيعود خالد الى بيته يوماً ما ، وسيلتقى بخالد هذا الذى سيحاسبه حساباً عسيراً يا ابنتى .



وتمضى الأيام

ويكبر الصغير

ويصغر الكبير

وهو في مكانه من حيث بدأ مرضه يرقب مجريات الأحداث في عالمه الصغير في صمت ما بعده صمت، وكأنه يعلن بهذا الصمت فجيعته في هذه الدنيا، وحزنه على أحوال سكانها من أمثاله، وينظر الى البعيد: يطالع قمم الجبال الشامخة، وهي تلتف فيما بينها لتطبق في نظام بديع على الأرض التى تحملها، لقد كستها الطبيعة حلتها الخضراء بعد أن سخت عليها السماء بدموعها الغزيرة، فمنحتها الرواء والنماء، وأعطتها الصفاء والنقاء، ووهبت أبناءها القدرة والقوة على العمل اليدوي الشاق، على مدارج الجبال، حيث يحاول كل واحد من أصحاب الأرض استثمار كل شبر فيها من أجل صالح الانسان في هذه القرية الصغيرة التى يسمونها

الشفا ، والتي تبعد زهاء عشرين كيلومتراً عن مدينة الطائف .

في هذا الجزء من الأرض ولد ، وفيه يعيش ، وفيه سيدفن حين يموت .. هذه هي سنة الحياة ، ومع هذا تظل أفكاره تسبق خطواته تشير الى أماكن الصبا التي لا يزال يرتادها ، ومع هذا فهو يرى بأنها تغيرت صورتها في عينيه . لماذا لا يدري ؟

ويعاود النظر الى قطيع الماشية ، وهو يرعى هنا وهناك يقتات الحشائش الصغيرة ، ومن خلفه ذلك الطفل بأسماله البالية فيتذكر ماضيه يوم كان هو في مكان هذا الراعي ، لكن الزمن تغير وأصبح من غير مقدوره أن يعاود رحلته مع قطيعه بعد أن كبر ، وأصيبت قدماه بمرضها المزمن الذى أقعده عن السير وربطه الى هذا الكرسى ، أكثر من خمسة عشر عاماً .

وتذكر كم أحب هذا الكرسى يوم أن جاء به أخوه من المدينة الكبيرة التى يسمونها جدة ، لقد استطاع بفضله أن يعاود سيره في الطرقات يلتقى

بضحابه يتحدث اليهم ، أما اليوم فقد كره هذا الكرسى وود لو يلقى به الى الوادي ، ليذهب دون رجعة .

وارتجفت شفتاه وأحس بكوامن الغيظ في نفسه من عقالها ، فسنواته التى أمضاها كسيحاً يجرى وراء الدواء في كل مكان عند طبيب القرية والمدينة بلا جدوى . تطل فجأة وبلا مقدمات :

ونظر الى السماء ليرى مجموعة من الطيور تدرب صغيرها على الطيران في دأب ومسرة فأحس بشيء من الراحة : فها هو الصغير يحاول الطيران مرة ومرات ، وفي كل مرة تتعثر أجنحته فيهوى من شاهق لتتلقفه الأجنحة الكبيرة في مظاهرة عجيبة .

ويمضى صغير الطير في محاولته حتى ينجح ، وعندها يمضى الى السماء بعيداً عن المجموعة في طريقه لطلب الرزق ، وتضج مجموعة الطيور بصغيرها ، وكأنها في تلك اللحظة تلقى في مسامع الدنيا قصة محاولة بدأها صغير ليكبر مع الأيام .

ما أجدره أن يأخذ درساً من هذا الطائر

الصغير !! ومن مجموعته التى ساندت موقفه ليكبر ، لقـد هجر المرعى ، والأرض الصـغيرة التى تحيط بداره ، ونسى الطريقة التى كان يساهم فيها معهم لجلب العسل من مخابيء النحل الذى أحبه هو الآخر، رغم لسعاته المؤلمة التى كان يحس بوقعها على يديه ، وهو يداعب أقراصها الشهية في البرج المصنوع من الحجارة والخشب .

لقد اختار يومها لوناً أخضر دهن به برج النحل، لأنه كان يحب الخضرة في كل مكان ، أما اليوم وعلى الرغم من هذا الصفاء الذى يحيط بسماء القرية وأرضها ، فقد بهتت صور الخضرة في عينيه ، لماذا لا يدري ؟ وأصر على معرفة السبب : فلقـد رضى حيناً من الزمن بواقعه الذىيعيشه ؛ لكنه بعد أن قرأ ما قرأ ، وعرف أن هنـاك امكانية جـديدة لعلاج قـدميه بدأ يفـكر في الطريقة التى يسلـكها لتلقى العلاج .

وتحدث مع أخيه في هذا الشـأن الذى أخذ على عاتقه اقتناص الفرصة للذهاب الى مستشفى الملك

فيصل التخصصى في الرياض ، عسى أن تجد قدماه طريقاً للعلاج بعد كل هذه السنوات .

وهو اليوم في انتظار عودة هذا الأخ من رحلته الى العاصمة بعد أن اصطحب معه جميع الأوراق التى جمعها عن مرضه .

ترى ماذا سيقول الأطباء عن مشكلته ؟ وهل حان الوقت لأن يعود الى اجتياز الطرقات في قريته الجميلة على قدميه ؟.

وتطل الذكريات في مخيلته مرة أخرى لتأخذ خطاً آخر مغايراً لما كان يفكر فيه ، وجنحت به أخيلته الى المستشفى الذى سمع عنه ، وتصور نفسه قابعاً في غرفته مطلا على الأرض التى يراها لأول مرة وبجانبه فتاة من فتيات المدينة ترعى شئونه وتشارك في اضفاء البهجة على قلبه .

وأحس في تلك اللحظة بدفعة جديدة من الأمل في الشفاء ، تسرى في عروقه ، وتحدث مع نفسه في هدوء وأخذ يقلب الأمور من جميع زواياها

وأخذ ينظر الى المستقبل وكيف سيكون بالنسبة اليه بعد الشفاء ؟.

لقد حال المرض دونه والمضى في الدراسة بشكل نظامي ، لكنه في الوقت نفسه أعطاه القوة على قراءة بطون الكتب القديمة والحديثة معاً ، واستطاع خلال تلك الفترة أن يكوّن لنفسه آراء كثيرة فيما يقرأ .

لطالما التقى بزملائه في صفوف الدراسة ، وهو يقرأ ما يتوفر لديه من كتب ، كان يراهم بعينه يختالون على صفحات الكتاب في فترات متقاطعة خصوصاً صديقه سالم الذى سافر الى الخارج ، وانقطعت أخباره عنه بعد رحيل أسرته الى مدينة أخرى ترى أين هو الآن ؟ وماذا يفعل ؟ وأقفل عينيه وتذكر أحاديث سالم وأمانيه وأحلامه ، كان من أولئك الذين اختاروا لأنفسهم أسلوباً متميزاً في التحصيل ظهرت آثاره عليه مبكراً منذ كان برفقته في المدرسة المتوسطة ، فهو يميل الى دراسة ما يمت الى الانسان بصلة ، وكأنه على موعد مع

حياة جديدة لا ندرى عنها الآن شيئاً .

وعاد الى الدار يحمل ذكرياته ، وهناك التقى بأخيه الذى عاد لتوه يحمل البشرى اليه فمن الغد سيكون في طريقه الى مطار الطائف في رحلة جديدة يصارع فيها المرض .

وشعر بالطمأنينة تتسلل الى قلبه ، ومضى يقبل أخاه في صمت ، وبعينه في هذه المرة ، لكن الأخير استرسل في حديثه قائلا :

ـ لقد قرأوا جميع التقارير ودرسوها ، وعرفوا شيئاً عن مرضك ، وهم في انتظارك لأنهم مؤمنون بأن علاج هذا المرض أمر غير صعب ، لكنهم قبل كل هذا يؤمنون بأن رغبة الانسان في العلاج هي الأخرى جزء هام من العلاج نفسه ، ولقد شرحت لهم حياتك وطريقة عيشك وايمانك ، فكان جوابهم لى بسمة رقيقة ، جعلت البهجة تضج في أعماقي ، لقد أحسست بأن الله سبحانه وتعالى قد أراد لى ولك الخير فهيأ لنا هذه الفرصة التى يجب أن نسرع في اهتبالها .

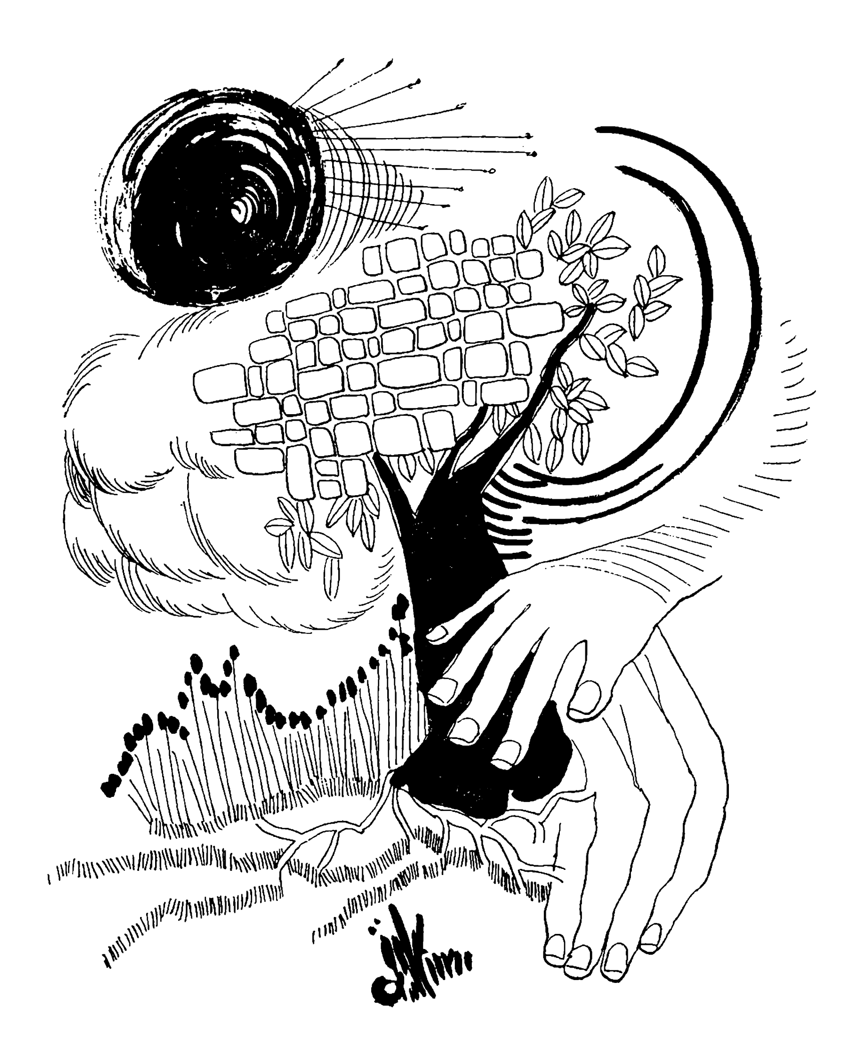
واندفعت الدموع الى مآقيه ، وكأنه يعلن في هذا الموقف عن شكره وتقديره لهذا الأخ الذى أخذ على عاتقه حمل مسئوليات البيت والأسرة ومسئوليته هو الآخر . ونظر اليه في صمت وقال كلمة شكر ، خرجت من أعماق نفسه ، ومضى الى غرفته يذرعها في كرسيه المتحرك وملء نفسه أحاديث شتى .

وفي الصباح أخذت السيارة طريقها الى الطائف فمطار الحوية بعد أن ودع أفراد أسرته ، وألقى بناظريه الى الأماكن التى كان يرتادها .

وفي الطائرة كان لقاء بينه وبين صديق الأمس ، الذى اختار مهنة مغايرة لما كان يأمل .

فلقد استمع الى صوت المضيفة تعلن عن اسم قائد الطائرة ، الذى عرفه على الفور ، وعندها طلب في رقة من المضيفة أن تنقل الورقة الصغيرة التى كتب عليها تحيته الى صديق الأمس الذى جاء على أثرها أحدهم ليأخذ بكرسيه الى غرفة القيادة .

وكانت فرصة يلتقى فيها الصديقان في أجواء



الفضاء بعد أن عز عليهما اللقاء على أرض القرية الصغيرة .

وفي المستشفى كانت اقامته في احدى غرفه الملآى بالأجهزة والمعدات الطبيـة ، وتناوب الأطباء على فحصه فرادى ومجتمعين ، ويوم أنهت اليه سـعاد الممرضـة ، خـبر اجراء العمليـة في الغد ، طار فرحاً ، وتحدث الى الطبيب طويلا الذى أكد له بأن عودة قدميه الى سابق وضعهما أمر يمكن الوصول اليه .

ونام ليلته ليقوم في الصباح وقـد عاوده نشاطه وأمله في أن يمشى على قدميه مرة أخرى .

وتطلع الى الممرضة بنظرة جـديدة هـذه المرة أودعها كل حبه للحياة هو الذى نسى طعمها الرائق في فمـه ، وأخـذ يتغزل في ملامح وجههـا الدقيق القسمات ، لكن هذه لم ترد سوى بابتسامة مضى في أثرها معها الى غرفـة العمليات . كان كل شىء في الغرفة يثير في نفسـه احساسات الفرح والسرور ، فهو قـد وطن عزمه على أن يشفى ، ولهـذا يحاول

اليوم أن يبـدو في أسـعد حالاته ، ومضى يدردش قليـلا مـع طبيب البنـج الذى والى اسـتعداداته للعملية .

لقد أحس ساعتها بأن كل واحد من هؤلاء القوم انما يشاركونه في حثه بالخلاص من هذا المقعد الذى أمضى معه أجمل سنواته ، وأحس أيضاً بأن دراسة الطب التى اختارها هذه الصفوة من الناس لم تكن مجرد دراسة ميكانيكية علمية ، وانما هي في أصلها ومردودها علم انساني تمنى لو كان هو واحداً من هؤلاء السادة .

وانفرجت شـفتاه عن ابتسامة أحس بها تملؤ وجهه ، فشاركه الجميع البسمة ببسمة أكبر ، وأخذ كل واحد مكانه ، حتى اذا ما سرى مفعول البنج في جسده غاب عن الوعي في رحلة مع الأحلام الهادئة هذه المرة .

ولقد أمضى ليلته تلك على فراشـه ترقبه شتى الأجهزة التليفزيونية التى أعدت في الغرفة الأنيقة حتى اذا ما بدا الصـحو يدب في جسـده قابلتـه

ابتسامة سعاد الانثى التى يراها مرة ثانية بجانبه انسانة أخرى غير تلك التى يعرفها .

لقد أحب في هذه الفتاة دعتها وسكونها وقدرتها على تحمل المرضى في أعصـــاب حـديدية ، واستمع لـكلماتها وهي تنصب داخل أذنيه : مبروك لقـد نجحت العملية ، وأجاب بلا وعي : صحيح أم أنها مجرد كلمة تقولينها لكل مريض .

وقالت سعاد : بودي لو أقـولها لـكل مريض ، لكنني اليوم أقولها وأعنيها ، فلقد نجحت عمليتك، فنحن هنا في هذا المستشفى نطرب لنجاح عملياتنا الجراحية كما تطرب لسماع أية أغنية .

وأدارت صـوت المذياع ليجيء صـوت المطربة مشاركاً اياه فرحته بهذا الحديث وانحدرت دمعـة صغيرة على خده هذه المرة ، لـكن سعاد ما لبثت أن ازالتها بمنديلها الورقي ، وقالت : أوتبكي ؟

وأجابها قائلا : دموع الفرح يا سعاد تصـورى بعد هذه السنوات الطوال أعود الى قريتى على قدمى

انهـا أمنية شـاء الله لى أن تتحقق على أيدى هؤلاء الرجال الذين يعملون في صمت من أجلنا ، من أجل المـرضى في بلادنا . من أجـل اعادة بنـاء الجسـم الانسـاني الذى أصـابه الخلل فجـأة ودون سابق انذار . وضحك ، ثم تابع قوله ، لكن . وصمت . لكن ماذا : تساءلت سعاد : وأجاب سالم : لا أدري فقد يكون لي الحق فيما أقوله ، وقد لا يكون لـكن ثقي أنهـا المرة الأولى التى أحس فيها بحـاجتى الى الـكلام ، ومعـك أنت . والتفتت اليـه وقالت : لا بأس عليك ، سأظل صاغية بكل أذني لما تقول ، فـلا تبخل علي بحديثك ، فلقـد أمضيت أكثر من ثلاث سنوات بعد تخرجي من مدارس التمريض في جامعة القـاهرة ، أنصت للمرضى ، لـكن حديثك اليـوم بالنسـبة الي شيء آخر غير جـل ما سمعت وضحكت .

وتابع سالم حديثه قائلا :

عندما أقول يا سعاد بأننى ولدت من جديد بعد أن سمعت تهنئتك أكون صادقاً في قولى هذا .

لأن أيام المرض الذى أقعدنى لن تظل مطلقاً في حساباتي هذه واحدة . والثانية أشعر بشيء جديد يداخل احساسى ، لا أدرى كنهه ، قرأت عنه كثيراً في الكتب وفي المجلات ، لكنني مع كل ما قرأت أظل في حاجة لمعرفة رأيك .

يقولون يا صديقتى : ان الحيــاة عنــدما تمنــح تعطى بسخاء ، وعندما تبخل تشح بسخاء أيضــاً ، واليوم وقد أعطتنى الحياة ما أريد ، ووهبنى الله ما أرغب أجــد في نفسى القــدرة لأن أتحــدث عن الهاجس الذى أصبح يحدق بهذا الخافق ظل طوال السنوات الماضيات يخفق بلا أمل . أما اليوم فقــد زادت خفقاته ، وأصبح يلح علي في أن أختار طريقاً جديداً .. وتابع قوله :

لقــد حطم المرض حيــاتى ، حــرمنى أن أكون واحــداً من هؤلاء الشباب الذين تريهم يعملون ، ومع هــذا أحمد الله من كل قلبى على عودة الصحة الى بدنى ، ومع هذا أظل أتطلع الى حياة أفضــل لا أدرى كيف أخطط لها ؟ فهي في نظــرى كحياة

الطفل الذى يبدأها بعد الثلاثين وأنا كما ترين في طريقى الى الثلاثين أكبر منك بكثير ، ومع هذا لا مهنة لى ، ولا عمل ، فهل يستطيع مثلى أن يحب وأن يعمل ؟ وأن يتزوج من يحب .

وأجابت سعاد : في هدوء وثقة : نعم يستطيع من يملك القدرة في نفسه على الاستمرار في الحياة ، ولقد برهنت بايمانك الذى يغمر قلبك واصرارك على اجراء العملية بعد هذا الوقت الطويل ، على انك قادر على اختزان عواطفك ، مالك لمقومات حياتك ، وهي صفات لا يمكن أن يتصف بها كل انسان ، ولهذا ستنجح ، لكن قبل كل هذا يجب أن تفكر في العمل الذى تريد والمرأة التى تحب أن تقترن بها .

انها أي المرأة والعمل توأمان للرجل ، يجب أن يكون بينهما الكثير من الترابط فاذا قدر لك وتعرفت على الاثنين معاً كان لك ما تريد ، أما اذا تعرفت على واحدة دون الأخرى ، أصبح الأمر شيئاً آخر ..

وأطرقت برأسها في حيـاء ثم مضت الى خارج الغرفـة ، وأخـذ يفـكر في كلماتهـا في هـدوء يناقشها في أعمـاق أعماقه ، فلقد استطاعت هذه الانثى أن تعطيه درسـاً انسانياً جـديداً في كلمات صغيرة ، لكنها مؤثرة وهو يشعر اليوم بقيمة كل كلمة قالتها .

فالأيدى التى تبنى مجتمعة في حاجـة الى أيادي كثيرة ، ويومها يستطيع أن يفكر بطريقة أخـرى غير الطريقة التى يفـكر بها الآن فرواسب المرض لا تزال عالقة في نفسه ، تجعله يتشبث بأول انثى تعامله في صداقة وتقدير كما فعلت سعاد ، هـذه الفتاة الرائعـة التى جاءت من أرض الـكنانة الى حصن العروبة المنيع في رحـلة مع العمل من أجـل المرضى أمثاله ، ولا شيء غيره ، وغادر المستشفى على قدميه لأول مرة بعد سنوات طويلة وكانت في وداعه سعاد ، التى شاءت أن ترقب خروجه في بهجة ، وعند باب الســيارة قالت له وبدلال هـذه المرة : وداعاً والى لقاء في الشفا أيها الصديق .


يا صديقي العزيز!

يا صديقى العزيز ....

لقـد حالت سـنوات العمر بينى وبينك فـلم تعطنى الفرصة لأن ألتقى بك بعد رحلتى الأخيرة الى بلد الغربة .

وكان فراق !! أخذت بعده العهد على نفسى ألا أكتب ولا أدرى ان كنت محقاً في هذا أم مخطئاً .

لكنها الحقيقة ، الحقيقة التى تعرفها ، ناقشناها سوياً ، وتحدثنا عنها كثيراً ، وكنت أنت واحداً من أولئك الذين يتطلعون الى المستقبل في ايمان وعزم وتصميم ، أما أنا فعلى عكسك تماماً ، شاءت أنانيتى أن أهرب من واقع الحياة في بلادى يوم كانت بلادى أبعد ما تكون عن استيعابها لوسائل الحضارة التى كنا نسمع بها ونقرأها في الـكتب والمجلات ، قـد لا يكون ذلك ذنبها بمقدار ما هو ذنبى أنا ، لأننى لم أكن مؤمناً مثلك ، قادراً على امتلاك الحقيقة التى بهتت صورها وأشكالها في عينى .

كنت شاباً يافعاً غراً ينظر الى الحيــاة على أنها عبارة عن نزوات تسيطر على أجسادنا فتتدفع الى انتهابها بشتى الوســائل ، وكنت أتطلع الى الصور التى تحلى الصحف والمجلات ، فأتحسر على الدقائق والساعات التى أقضيها هنا في هذه المدينة الصغيرة التى يسمونها (ينبع) .

ومع أول باخــرة استطعت الهروب على ظهرها غادرت المدينــة ، بعد أن تركت ورائي صور ذلك المجتمع الذى كنت ألقى عليه باللائمة لأنه لا يتطور، يظل في مكانه ، لا يأخذ بأســباب المدنية الحديثة . أوتذكر يا صديقي : لقاءاتنا المتكررة على الشرم، نأخــذ من يومنــا ليومنا ، أما الغــد فقد نســانا وتناســيناه ، وذكريات الطفــولة المرحة قضيناها جرياً وراء الماضى نبحث في طيات الرمال الناعمــة عن آثار أولئك الذين ســبقونا فبنوا قصورهم على الرمال لتجتازها الرياح ثم تذروها في البعيــد .. البعيد .

ســتذكر ذلك حتمــاً ، وتذكر أيضــاً صديقنا

سعيد بملابسه الزاهيــة يختال على الطريق في أول عيد لشــهر رمضان تفتحت أعيننا على ذكراه كان والدى ووالدك من طينــة غــير طينــة والد ذلك الصــديق ، فــلم نســتطع أن نجاريه في اختيــار ملابسه أو حتى في طريقة مشيه .

وكنت أتحدث اليك في صــوت مسموع ، أنقل اليك احساساتي ، ما أحب وما أكره لكنك لم تكن تعير ما تسمع أذناً ، كنت مشغولا عني بأفــكارك وأحلامك ، ونظراتك الثاقبة الى المستقبل .

وحديث المدرسة الصغيرة ، وعم عبد الباقي بائع البليلة الذى كان يجود علينا بما يتبقى من بليلته ، وهو يعرف اننــا أنا وأنت لا نســتطيع أن نعطيه ثمنها ، ومع هذا كان لا يبخل علينا بما لديه .

لطالمــا ذكرت كل ذلك وأنا في بلاد الغــربة . الدروب الصغيرة التى نسير في محاذاتها ، ونحن في الطريق الى بيوتنا التى تحمل بصمات الماضى ، هي الأخرى كانت ولا تزال تعيش في مخيلتى حتى اليوم .

ترى هل هي على ما كانت عليه أم أن الزمن قد

تغير ، وداهمتها أيدى التطور ، فلم تبق على تلك الرواشين الخشبية الدقيقة الصنع . لطالما ظللتنا شجرة البانسيان العجوز التى كان يتعهدها العم عطية مقريء البلدة العجوز ، ترى كيف حاله اليوم وهل لا زال في مكانه يحمل كل ليلة جمعة دفتره المفضل ليوثق فيه عقد زفاف جديد ؟

والصحاب الذين كانوا معنا في غدواتنا يجرون على الأرض الطيبة يحيلون ترابها الى غبار تثيره الأحصنة الخشبية المزيفة في رحلة مع الطفولة ترى هل لا يزال يمارسها أبناؤك ، كما كنا نمارسها نحن في الماضى ؟

لا أظن يا صديقى ، فالحياة في بلادى حسبما سمعت تغيرت كثيراً .

وهبها الله النماء فازدهرت وربت ، وأعطت أكلها لأبنائها الصالحين من أمثالك .

أما أنا فكما ترى : أقبع في جزيرتى أتحسس طريقى بين الأشجار الخضراء ، أدب على عصاي أتوكؤ عليها في قسوة .

لقــد فرغت لتوى من قراءة جريدة أمريكيــة ، نقلتنى لواقع الحيــاة الجديدة في بلادي التى لم أكن أتصور أنها ستحدث لأننى كنت قصير النظر .

أضـعت الثــلاثين عاماً من عمــري في اجتيــاز المجهول في جزر أندونيسيا أتقلب في أعمال شتى ، ومع هذا كنت كما أنا خالى الوفاض ، لا أستطيع الحصول على أجر الباخرة ، أو الطائرة التى تعيدنى الى بلادي .

فــرغ الــدم من شراييني ، وتصلبت عــروقى وغابت عن وجهي نضارة الحياة القاسية التى عرفت والتى كانت كذلك .

لكنني مع هــذا خرجت من القســوة الى قســوة أكبــر ، ومن مجتمعى الطيب الى مجتمــع آخــر لا يرحم من لا يعمل ، ومع هذا عملت ، صنعت من زورقى أحــلاماً كثيرة بددتها رياح الأوهام ســاعة غيظ ، وكأنها هي الأخرى قد تعاهدت معك على أن أظل كما أنا .

لا عليك يا صديقي من كلماتي هذه التي أخطها اليوم في رسالة طويلة أبعث بها اليك عبر الأجواء الصافية التي ألمسها من خلال كل ما قرأت عن بلادي في خطواتها الجديدة .

حتى الأرض التي أمتلكها بعتها بتراب الفلوس لأخذ بقيمتها أجر التذكرة التي حملتني الى أرض الغربة .

يقولون أن سعر الأرض في ينبع اليوم بمئات الريالات ، بعد أن كانت بتراب الفلوس . أحقاً هذا ؟

وان الصحوة الكبرى في هذه المدينة تدق اليوم أبوابها في عنف لتحيل هدوءها الى ضجيج .

ويقولون أن الصناعة والتصنيع في طريقها الى هذه المدينة بعد أن اختيرت لتكون المدينة الصناعية الثانية في بلادنا المترامية الأطراف ويقولون .. ويقولون .

وأنا أقرأ ما يقولون وأتحسر على السنوات التي مضت .



لقد منيت بامرأة كان حظى من الاقتران بها ، أنها أخذت في مرضها كل ما أمتلكه ، ثم ذهبت .

وأنا اليوم أترحم عليها في صمت ، لكنني لا أدرى ما الذى سأقوله ، قد تكون الحياة في أندونيسيا قريبة الى قلبي يوم جئتها ، أما اليوم فقلبى معك مع المدينة الصغيرة التى تكبر مع الحياة التى تنمو في بلادي مع الأماني والأحلام التى كانت في نفسك وهي اليوم تتجسد .

لقد قطعت ـ خلال سنوات حياتى الماضية ـ الجسور التى تربطنى بهذه البلاد ، فتنازلت عن جنسيتى ، وتركت كل شىء ، وها أنذا وقد فقدت الشىء الكثير : عمرى وشبابى وأحلامى وأمانى ، لا أجد ما أقوله سوى أننى مشوق للقاء الأرض التى مشينا عليها سوياً .

دعنى أقبلك من خلال كلماتى التى أكتب وأقبل كل شبر في الأرض الطيبة .

الميناء الصغير الذى كان مربط ألعابنا ترى كيف

هو الآن ؟ هل لا يزال في مكانه أم أن يد العمران قد امتدت اليه .؟

لقد التقيت صدفة بحاج من أبناء أندونيسيا ، عاد لتوه من أداء الفريضة ، فدهشت لحديثه عن بلادي وتطورها .

كان يصفها وصفاً دقيقاً ، وكأنه يجسد جل أمانيك من خلال كلماته . لك الله يا صديقى ، فلقد تحققت أحلامك ، وتحطمت أمنياتي على صخار الغربة ، أوتذكر : قيثار الحب ، هكذا كنت تسميها أنت بينما كان كل واحد في مدينة ينبع يسميها السمسمية ، كنت تعزف عليها ببراعة ، فهل لا تزال كما كنت أم أنك اليوم تعزف على أشياء أخرى كالبيانو ، والأرغون .

لقد شاهدت بالأمس فيلماً تليفزيونياً ، نقلتنى مشاهده الى الأرض التى مشى عليها محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، وشدهت للعمارة الرائعة التى شيدها هذا العهد للمسجد الحرام والمسجد النبوي .

واطلعت أيضاً على بعض مشاهد التطور التعليمي ، فشاهدت بنات مجتمعنا يسرن في طريق العلم ، في حشمة ووقار .

لقد أثارت في نفسى رؤيا الفيلم ذكريات وذكريات ، وتصورت حياة بناتنا في ذلك الماضى السحيق يفترشن الأرض في كتاب عتيق تشرف عليه امرأة من سوريا .

لشد ما تغيرت أوجه الحياة في بلادنا ، أما أنا فلا أزال كما أنا : أمتص الغربة وتمتصنى : تثير في نفسى كوامن الشوق الى مرابع الصبا ، ومراتع الشباب . لقد نضوت عن نفسى أدران الحزن بهذه الرسالة التى أرجو أن تتسلمها وتقرأها في امعان لأنها جزء من حياتنا التى مضت .

قد تكون هناك بقية من العمر أستطيع من خلالها أن ألقاك وأرى كيف تعيش ؟ ثم أمضى لأطالع كل جزء في بلادى التى أحبها من كل قلبى .

لقد حرصت في هذه الرسالة أن أعيدك الى

الماضى ، على اعتبار أنها الوسـيلة التى تستطيع بها أن تعرف جيـل بلادي من أبنـائك بما كان ليروا بأعينهم كيف أصبحت بلادهم نموذجاً خيراً للتطور وصورة صادقة للحضارة .

ومعـذرة ان أطلت فأنا مشـوق الى أن أرى وجهك ، وأنت تقـرأ كل حرف من هذه الرسـالة التى أودعتهـا احساسـاتي وحبي وتقـديري لك وللعاملين المخلصين من مواطنيك ، فهم على ما يبدو في سـباق مع الزمن يجسـدون من خـلاله أمانينا وأحلامنا ، التى لم نستطع تحقيقها يومذاك .

وشكراً من الأعماق ؟

صديقك

ابراهيم


..وتطل الذكريات!

كل شيء هاديء في الطريق الى خريص وهو وحده يقود سـيارته في عصبية والجـو يميل الى البرودة وزخات المطر تدق زجاج السيارة ونوافذها في هدوء رتيب ، وكأنها على موعد مع رحلتـه تلك ، التى يقوم بها في هذا الوقت المتأخر من الليل .

أضواء محطات البنزين تطالعه هي الأخرى في صمت ، وتطل عليـه من بعيد ، وهو في طريقه الى المجهول يبحث عن الراحة ، بعد أن افتقدها طوال ليلته تلك .

لقد أمضى ليلته ساهراً بجوار التليفون يترقب في لهفة رسـالة المسـاء تأتيه في وقتها المحدد دون جدوى .

كم يكره هذا الصمت : ولكم كان بوده أن يحيل هذا الصمت الى صخب وأدار مفتاح الراديو بحثـا عن أية اذاعة ، وأخـذ يدير المؤشر هنا وهنـاك بلا فائدة .

الطريق الأسفلتي الأسود يلمع تحت أضواء السيارة ، غسلته الأمطار جنت عليه الغيوم ، يستقبل عجلات السيارة في حنان وكأنه يشفق عليها من مشوارها الطويل ، وتبدو في البعيد عدد من سفن الصحراء بأعناقها الطويلة ، تختال في مشيتها على الطريق .

وهو خلف المقود تتداعى في أعماق أعماقه أفكار كثيرة ليتها تصمت هي الأخرى فلا تطفو ، لكنها تأبى أن تستسلم لما يطلب .

الرمال الحمراء كساها العشب الأخضر ، وبللتها دموع السماء ، رطبت أجواء صحرائها ، وهو من عشاق هذه الرمال لكثرة ما التقى بها في طفولته وشبابه ، واستدار ليأخذ طريقاً جديداً بين الرمال بعيداً عن الأسفلت الأسود النظيف . وهناك على هضبة صغيرة أوقف سيارته ، وتطلع الى السماء فبدت نجمات صغيرة تظهر من وراء السحب التي أخذت تتبدد فجأة ، تمضي كما جاءت ، تنقلها الرياح ، وما أقدر الرياح على نقل الأشياء .

وأخذت الذكريات تنساب في عروقه ، تطل من مخيلته ، تظهر كشريط سينمائي من بين عينيه .

وبدت أيام طفولته أمام ناظريه بجميع أشكالها وأحداثها ووقائعها فلقد ولد في قرية صغيرة من قرى المدينة ، شاء لها حظها آنذاك أن تقام فيها مدرسة سموها مدرسة الصحراء : فرح بها كثيراً واستبشر ، فهي ستغنيه عن الذهاب الى مدارس المدينة .

صحيح أن التعليم لم ينتشر في بلاده ، كما انتشر اليوم ، لكن تلك المدرسة كانت بالنسبة اليه طوق نجاة ، فهي وان كانت سترحمه من رعاية قطيع الغنم في الصباح ، لكنها لن تتركه بعيداً عن نايه الذى كان يستخدمه كثيراً في جولاته ، ويفرح به ، ويحافظ عليه . يضعه في صندوقه الخشبي مع ملابسه القليلة ، وفي المدرسة أثبت قدرته وتفوقه في الاستذكار والدراسة بشكل أرضى جميع أساتذته ، ورجال قريته أيضاً أما والده فقد كان موضع فخره ، يجلس برفقه الساعات تلو الساعات

يستمع الى ما يقرأ من كتب لا يعرفها .

كان باسم الوجه رغم جميع التغضنات التي تحيط بوجه ذلك الرجل الأسمر ، قوى البنية يستخدم يديه وعقله في آن واحد ، يبحث عن لقمة العيش في مقهاه الصيفي ، حاضر البديهة ، يتذوق النكتة ويدلى بها في أسلوب عفوي .

لكم أحب من قلبه هذا الأب ، فلقد كان حريصاً على تنشئة ابنه بطريقة مغايرة لنشأته هو .

والبيت الصغير بغرفه العارية ، ووالدته حول الرحاة تطحن قمحها تدندن بأغان بدوية حفظها لطول ما كانت ترددها تلك الأم ولا يزال يحفظها .

وأخذ يدندن بواحدة من تلك الأغنيات حتى اذا ما انتهى من كلماتها عاد مرة أخرى بذاكرته الى أصدقائه وصديقاته الصغار الذين كانوا يشاركونه اللعب في قرية (المسيجيد) على سفوح الجبال الصغيرة، وبين مقاهيها المحلاة بسعف النخل ، وعلى مقربة من القليب الصغير ، حيث يستقي الناس مياه الشرب

لهم ولأغنامهم وجمالهم

لطالما أمضى الساعات يرقب لعبة (السيجا بعر) تدور رحاها بين أبناء القرية الكبار . ولقد حاول يوماً أن يرسمها على لوحة خشبية واختار بدلا من بعر الجمال أحجاراً ذات لونين ، وألقى بما صنع على مائدة المقهى أمام والده وزواره : على اعتبار أن الطريقة التى استنبطها قد تغنى الرفاق من الجلوس على الرمال ، لكن رواد المقهى قابلوا الأمر في باديء الأمر باحترام كبير ثم تناسوا اللوحة وعادوا يمارسونها بطريقتهم ، وكأن أمر اللوحة لا يعنيهم . لماذا لا يدري !!

ويوم وجه الى والده هذا السؤال ضحك الشيخ من كل قلبه ، وقال في هدوء : سيأتي اليوم الذى تتغير فيه ملامح الحياة في هذه القرية ، وسيعترف القوم بأسلوبك الجديد في تهيأة ظروف أفضل لألعابهم أما اليوم فلا :

دعهم يا بني على ما تعودوا عليه . وأمض

بلوحتك الى أصدقائك الصغار فبسواعد هؤلاء سيتم التغيير .

كلمات عفوية تحمل معان كثيرة خيرة قالها الرجل بلا مبالاة ، وكأنه يقرأ من ورقة صغيرة ما سيجرى لهذه القرية في مستقبلها القريب .

وتمر الأيام ، ويأخذ فهد طريقه الى المدينة المنورة في رحلة جديدة الى المجهول ، ويستقل السيارة بعد وداع حافل ظهر خلاله والده أقوى قلباً وأكثر ايماناً ، وأعمق تفكيراً ، أما والدته فقد أمضت ليلتها تلك مع دموعها تذرفها سخية ، فلأول مرة في حياتها سيغيب وليدها عن ناظريها .

وفي الطريق الممتد عبر الصحراء كانت رحلة فهد الى المدينة المنورة لقد أعطاه أبوه رسالة صغيرة الى عمه طلب فيها أن يفتح عينيه عليه وأن يلاحظه دائماً فلا يدعه يغيب عن الدار التى سيقطنها بعد كل مغرب .

أخذت سيارة البريد طريقها بين الرمال في



رحلة شائكة ، وفي جوفها طفل لم يقطع بعد الثانية عشر من عمره ، لكنه كان في تلك اللحظة في اهاب رجل يمضى الى غايته في هدوء الواثق بنفسه وملء قلبه أمنيات يرجو أن تتحقق ، وامتد أمام ناظريه الطـريق الطويل يحمل في طيـاته رغبـة مكنونة فلطالمـا أحس ببعض مرتادى قهـوة أبيه وهم في طريقهم الى المدينة أنهم يتحدثون بكلمات لا يفهمها، ويلبسون ثياباً نظيفة ، ويتطلعون الى القرية بمزيد من الفضول .

وهو اليوم قـد يكون أحسن حالا ، لـكن هزات السـيارة ووقوفها المتـكرر ضايقه بعض الشيء ، وأبعده بعضاً من الوقت عن أفكاره، وأصبح الخروج من السـيارة ، ودفعهـا بالأيدي الى الأمام والخلف الوسيلة للوصول الى الغاية .

وعند مداخل (أبيار علي) أحس بالراحة، فها هي مناظر المسـجد النبـوي تبـدو أمامه بمنـائرها الشاهقة ، صورة جميلة تختلف كل الاختـلاف عن صورة المسجد الصغير في قريته المسيجيد .

أخذ مستقلو السيارة طريقهم الى المقهى الصغير، لتناول بعض الطعام وبقى هو في مكانه يبتلع كسرة الخبز التى دفعت بها أمه اليه ، وفي أعماقه أحاديث لا تنتهي ، لكن السائق العجوز الطيب القلب الذى أوصاه أبوه به لم يرض عن بقائه ، بل طالبـه في اصرار الانضمام اليه ومعاونه لتناول الشاي وعلى كرسى الشريط أخـذ الشريط السينمائي يكبر في ذهنه ودقات قلبه تعلو وتعلو حتى تكاد تصم أذنيه . فعلى مقربة منه وبعد قليل من الوقت سيكون على مشارف المدينة .

ترى كيف سيستقبله عمه ، والى أي مدرسـة سينتمي ، ومن سـيكون زملاءه ، وكيف سـتكون الحياة في المدينة الكبيرة ؟

الوقت يمعن في الضـياع وهو على مقعـده وراء المقود تداعب ذهنه أفكار المـاضى وأحاديثه : لطالما تذكر أشياء كثيرة عن هذا المـاضى الذى عاشه لكنه اليوم يتذكر تفاصيل ودقائق ذلك الماضى في حرية لا تعادلها أية حرية ، وضحك من أعمـاقه ولأول

مرة : هو الذى لم يضحك بعـد أن خمـد صـوت تليفونه لماذا لا يدري ؟ وعاد بالذاكرة القهقري الى أيام الدراسـة في المدينـة ، كيف كانت ؟ وكيف مضت ؟ وقارن بين الحياة قبل عشرين عاماً يوم كان هناك في المدينة المنورة واليوم فرأى البون شاسعاً ، فلقد امتد العمران وعمت الكهرباء ، هو الذى عاش أيام دراسته في المدينة على لمبة غاز بعد أن يقفـل المسجد النبوي أبوابه ، وتغمض كهرباؤه عينيها في انتظار الفجر .

أما عمه فكان رجلا فريداً من طراز يختلف عن والده ، فهو يرى رغم وجوده في المدينة أن التعليم مجرد عبث يكفي الواحد منا أن يعرف كيف يقرأ ؟ ولهذا لم يعط الفرصة لبناته أن يمضين في دراستهن رغم توافر الظروف بعد ذلك ، ومع هذا كان معه انساناً آخر تناسى نصيحة والده ، وتركه يبقى مع كتبه ومذكراته في المسجد حتى قفل أبوابه .

انه يتذكر اليـوم الذى مضى فيه الى المدرسة ، لقد طالعه أول ما طالعه وجه واحد من أشهر مدرسى

المدينة أشقر الوجه ، جميل تقاطيعه ، يجيد الحديث والشرح ، يحبــه تلاميذه من كل قلوبهم ، فارتبط باستاذه في رباط أبوي ، كانت نتيجته هذا المركز المرموق الذى هو فيه .

لطالما نفخ هــذا الأستاذ في عروقه ، واستنهض هممه ، وصنع المستحيل ليجعل منه الطالب المثالى .

ويوم نال شهادته الثانوية من المدرسة الناصرية أقام له الأستاذ أحمد حفلة شيقة في داره تناوب على الكلام فيها العــديد من أساتذته واخــوانه وكانت أحاديث الجميع منصبة على التغيير الشامل والتطور الــكبير الذى أخــذ يعم الســهل والجبــل من بلاده الكبيرة .

وسرح بناظريه الى المسيجيد ترى هل أضيئت شوارعها بالكهرباء كما هو الحال في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، لكنه لم يصل الى الجواب اذ قطع عليه حبل تفــكيره اخوانه يطالبونه بالحــديث فقام يختال بينهم مؤيداً كلماته بالشــكر والتقدير ثم عاد بعدها الى الاشارة لحاجة هذا الوطن لسواعد

أبنائه يبنون تطوره ، ويساهمون في تقدمه .

وفي نهاية الحفل ودع فهد أساتذته وأصدقاءه ، وأخذ طريقه الى بيت عمه في (حوش أبو جنب) يلملم منه كتبه وحاجاته ، ومعها ذكرياته التى أمضاها هنا وهناك ، لقد تأثر بالمعاملة الطيبة التى كان يلقاها من سكان ذلك الحوش لقد ارتبط بهم طوال السنوات التى أمضاها في الدراسة بصداقات كثيرة مع أبناء ذلك الحي : وأحس بأنه مدين لتلك البقعة الصغيرة من مدينة الرسول بالكثير ففيها تعرف الى أنواع طيبة من علاقات المحبة والود والاخاء والتساند في الملمات ، وكانت عودته الى المسيجيد هذه المرة بطريقة مغايرة للطريقة التى قدم بها .

لشد ما تغيرت الأحوال في بلاده ، اختفت أكثر المناظر القديمة ، وامتد العمران في كل مكان وطالت أنوار الكهرباء أقصى حارات المدينة ، وتنفس الناس الصعداء فوسائل الحضارة تباع في الطريق بأثمان بخسة .

ترى هل يستعملون في المسيجيد نفس الأجهزة

التى تستخدمها امرأة عمه في المدينة ، لا يدرى بعد وان كان يؤمن بأن التطور لم يترك مكاناً الا وصل اليه .

وهو لا يزال يذكر يوم جاءت أمه لزيارته ، لقد دهشت لملابس النسوة اللاتى كنّ داخل بيت عمه ، وتحدثت اليـه كثيراً عن هذا الموضـوع حتى الحلي أصـابها هي الأخـرى نوع من التجديد ، وأصبح الناس ينـامون في غرف مكيفـة الهواء بعيـداً عن قاعات الأمس التى كانوا يتلمسون فيها الرطوبة من خلال فتحات كبيرة تطل من سقف العمارة حتى قاع القاعة .

لقد منّ الله على هذه البـلاد بثروة جديدة هي البترول بعد أن كانت كل ثروتها ما يرد اليها من عائدات الحجاج . وأصبحت الدولة تصرف الـكثير على هؤلاء الناس ، وهو يذكر جيداً كل هذه الأمور ويعيها لأنه عاصرها بالفعل .

أما كونه فلا يدري عنها شيئاً فلأنه ولد بعد تلك الفترة .

ويصل فهد الى المسيجيد ليجد أن كل شيء فيها تد تغير حتى مقهى والده هو الآخر قد تغير كثيراً ، امتدت له يد التطوير وامتد العمران ليحيل صحراءها القاحلة الى مزارع صغيرة .

لقد أمضى أياماً جميلة مع والده ووالدته ، والرفاق الذين كبروا والأصدقاء الذين اشتغل بعضهم ، وكانت فترة من أجمل فترات حياته ، حاول خلالها جاهداً أن يحتفظ بجميع صور الأمس واليوم للمستقبل الذى يريده .

وكانت ذكريات الامس المشجع الأول له لأن يمضى في طريقه الى أمريكا في رحلة علمية ، مع أمثاله من الشباب الذين هيأت لهم فرصة الانتقال من حياة الى حياة .

لقد أمضى شهراً كاملا سعد خلاله برؤية أصدقائه ومحبيه ، ويوم استقل السيارة في طريقه الى جدة ، كانت السيارة من نوع آخر جديداً مغايراً لسيارة البريد التى استقلها في طريقه الى المدينة . وفي جدة شاهد أشياء كثيرة وتعرف على أصدقاء

جـدد ، كانوا خير عون له في شراء ما يحتـاجه من ملابس في رحلته الجديدة هذه . لطالمـا استمع الى حديث والده عن هذه المدينة لكنه اليوم يراها شيئاً جـديداً غـير ما سمع بمبانيها الجميـلة وطرقاتها المضاءة وتوفر الماء في كل مكان فيها .

وفي مدينة تكساس بأمريكا حط به الرحال بعد أن اجتمع الى صفوة من أبناء بلاده ساهموا جميعاً في اسـعاده . وتعريفـه على معالم الحيـاة في البلد الغريب .

كان دائم الـكتابة الى والده يشرح في اسـهاب جميع ما يراه في هذا البلد العجيب مدنه وطرقاته ومقاهيه وأنديته وأضوائه ، وكان الى جانب ذلك مكباً على دروسـه ينتقل من مرحـلة الى أخـرى في سرعة عجيبة وذكاء خارق شهد به جميع مدرسيه . لقد جاب أكثر مدن أمريكا وأوروبا ، وتعرف على عادات أهالى تلك البلدان وتقاليدهم ، واستطاع أن يسايرهم في كثير من أمور حياتهم ، لكنه ظل ذلك البدوي في أعماقه : يكبر دائماً وعلى مدار الأيام

ويوم عاد الى المسيجيد بشهادته الكبيرة ساهم مع والده في خدمة الزبائن وأشرف على راحتهم ، وبقى فترة من الوقت يدلل والدته ووالده بما جلبه اليهما من هدايا .

وعندما استقر به المقام في العاصمة حاول المستحيل لأن يأتي بأبيه وأمه الى محل اقامته لكنهما رفضا ذلك ، فعمد على بناء دار جديدة لهما في القرية الصغيرة كانت ولم تزل مضرب المثل بالنسبة لسكانها .

ترى لماذا يذكر كل هذا وهو في مكانه لا يفارق سيارته ؟

لقد توفت أمه ، وساهمت وفاتها في اعطائه الفرصة لأن يحمل والده على السكن بقربه ، ويوم وافق طار فرحاً ، فها هي الفرصة تواتيه لأن يقدم شيئاً لهذا الأب الذى أعطاه كل حياته .

ومرت الأيام في سيرها الحثيث ، اتجاها آخر لم يطلبه ، فقد التقى فهد في آخر زياراته لأمريكا

بفتـــاة أمريكيــة من زميلاته في الدارســة وأحس بالكثير من العطف تجاه هــذه الفتــاة التى بادلتــه العطف حباً كبيراً ، فاقترن بها في سرعة عجيبة ، ثم عادا الى الرياض لتضع أول مولود لها .

لكن الفتاة بعد أن وضعت مولودها أحست بكثير من الشوق للعودة الى الأرض التى ولدت فيها ، فلم يمانع .. وافترقا على وفاق هي الى أمريكا ، وابنه بجانب جده الذى أخذ يسهر عليه ، ويرعى نموه في حب واعزاز .

ويوم سافر والده رفق ابنه بالطائرة الى المدينة ومنها الى المسيجيد شعر بفراغ هائل يتصدر حياته، وأخذ يعد الأيام لعودتهما لكن القدر كان يخبيء في هذه المرة شــيئاً جديداً له ، فلقد تسلم برقيــة من صديقه سالم مدير المدرسة في المسيجيد يطالبه فيها بالحضور ، واندفع فهد الى المطار ليأخذ أول طائرة الى المدينة ومنها الى المسيجيد ليجد والده في حالة من المرض شديدة . وآلمه منظر والده ، فعمل المستحيل على نقله الى مستشفى جدة ، وفي جدة قرر الأطباء

سفر الوالد الى أمريكا للعلاج من المرض الخطير الذى أصابه .

واستخدم فهد جميع صداقاته ليأخذ أول طائرة الى مستشفى هوستون في أمريكا ، وفي المستشفى وبعد فحص طويل استغرق بضعة أيام قال له الطبيب : قد يحتاج علاجه الى شهور ، وعلى هذا يمكنك أن تعود الى عملك وأن تطمئن الى النتيجة .

لكن قلب فهد لم يطاوعه أن يترك والده في هذه الحالة ، ومع هذا فقد بارك العجوز سفره على وعد آن يتحدث اليه ليلياً وبالهاتف ولهذا فهو في كل ليلة على موعد مع جرس التليفون في حديث طويل مع والده العجوز .

ولقد انتظر كثيراً هذه الليلة عله يسمع صوت والده دون جدوى . لقد اتصل بالترنك مرات ومرات ، وطلب المستشفى من جانبه لكن تليفون المستشفى في هذه المرة لم يلب نداءه لماذا لا يدري ؟

وها هو الليلة يرمق النجوم التى أخذت تظهر

أكثر وأكثر في السماء في لهفة ما بعدها لهفة !! ترى متى ينبلج الفجر مؤذناً عن انبثاق يوم جديد .

وتمضى الساعات ويمل فهد مكانه ويعود الى طريق خريص في رحلة جديدة مع سيارته في انتظار تباشير الصباح .

وفي البيت تعاوده أفكاره مرة أخرى .

ترى ماذا جرى لهذا العجوز ؟ حتى يصمت وأخذت الهواجس تحيط بفكره من كل جانب وتمسك بتلابيب نفسه ، ويحس فهد بحاجته الى من يؤنس وحدته ، فمضى الى غرفة ابنه ليجده هو الآخر يغط في سبات عميق .

وتطل الذكريات ، وتبدأ المقارنة بين حياته بالأمس ، وحياة هذا الطفل الوادعة ، وتبدأ أحاديث النفس تأخذ أسلوباً آخر ، في تلك اللحظة .

ترى هل تجوز المقارنة بين الأمس واليوم ، بين الأمس البعيد وحتى الأمس القريب . لقد تغيرت أسباب الحياة وأساليبها في بلاده ، ومع أن طعمها

الرائق لم يزل يحس به ، يجرى في فمه الا أن هذا الطعم قد بدأ يفقد قيمته لديه .

لماذا ؟ ألأنه يفتقد والده ، وهذا الطفل هو الآخر ألا يفتقد شيئاً ؟

سيصحو من نومه وسيكبر ، ويومها سيشعر أن والدته التى وهبت له الحياة ذهبت دون رجعة .

امتصتها الأيام وابتلعتها المدينة الكبيرة بزخرفها وضوضائها ، لم يغنها حبها له ، ولا وجيف قلب هذا الطفل الذى تركته بلا وداع .

لقد تحدثت اليه حديثاً طويلا ، لكنه لم يكن على ذلك المستوى الذى يريده .

صحيح أن الشرق شرق والغرب غرب ، وانهما لا يلتقيان .

واذا التقيا فالى حين . ومن ثم يعود الفراق ليحل مكان اللقاء .

ولقد أصم أذنيه يومها حتى لا يسمع حديثها

الرتيب وهي تلقى على مسمعه محاضرتها عن أسباب هجرها للبيت ، ورغبتها في العودة .

لقد قالت كل ما عندها في كلام منمق ، وكأنها اختارت كل كلماتها ، ومع هذا فقد هز رأسه دون أن يجيب ، لا لأن كلماتها لم تكن مناسبة ، ولكن لأن كل ما قالته لا يخرج عن كونه معادلة علمية تندرج تحت أرقام يكون الناتج عنها مدروساً وملموساً .

ترى هل فقد الغرب وخاصة فتيات أمريكا معنى العواطف الانسانية الجياشة ؟ أم أن حبها كان مجرد نزوة ؟ وما ذنب هذا الطفل اذا كان حبها قد فتر ؟ أو لا تستطيع هذه الأنثى أن تفهم معنى التضحية ؟

وآمن بينه وبين نفسه بأنه قد أخطأ فاختار لنطفته فتاة من غير جنسه .

ترى لو كانت هذه الفتاة من بنات المسيجيد أو المدينة أو الرياض أو أية مدينة أخرى هل تفعل ما فعلت؟!! ومع هذا تركها تصنع ما تريد وأعطاها

ما ترغب . كان جل همه شيئاً واحداً هو أن تكون على اتصـــال به ليعرف ابنها مكانها يوماً ما عندما يكبر .

لكنها هي الأخرى رفضت ذلك ، ولم تبعث حتى برسالة صغيرة تنبيء عن وصولها الى أهلها وذويها.

ترى أين هي الآن ؟ وماذا سيقول لهذا الطفل عندما يكبر ؟.

سـيقول : انهـــا ماتت ويكـــذب . وتختـــلط الذكريات ، وتطل عقدة الذنب في لحظــة من صحو الضمير ، ويدور حديث خافت بينه وبين نفســـه : لماذا أقـــدم على الزواج بهذه المخلوقة ؟ لقد عرف الحيـــاة في أمريكا ، وشهد كثيراً من فصول المأساة التى تعانيها الأسر الأمريكية ، ورأى بعينه انفصام أفراد الأسرة وتباعدهم عن بعضهم البعض ، ربما كان يظن أن الحياة في بلاده ستغير من نظرة الفتاة ، ستعيدها الى صوابها ، ولكن حتى هذا لم يكن صحيحا.

واليوم ها هو في غرفتـــه يجسد أحـــزانه التى

ولدها : صمت هذا التليفون ليته ينطق ، ليته يقول كلمة واحدة ، ويرن جرس التليفون فيلقفه في لهفة ، وتجيء كلمات عاملة الترنك الى أذنيه عذبة متراقصة ، فها هي أمريكا معه على الخط الاخر .

ويفاجأ بصوت زوجته الأمريكية يرن في أذنه في كلمات صافية ، كانت كلمة عزيزي تسبق كل كلمة تقولها هذه الأنثى .

وامتدت المخابرة التليفونية فترة من الوقت كانت فيها (لودي) تتحدث في اندفاع غريب، وتصف في كلمات سهلة رحلتها الطويلة عبر مدن عدة ، شاهدت معالمها في بهجة .

واستمع لحديثها وهي تعتذر عن التأخير في الكتابة اليه والحديث معه لانشغالها بأمر الزوج الجديد الذى اختارته أثناء مرورها ببلجيكا ، ودفعت بسماعة التليفون الى زوجها الجديد ليتحدث اليه شاكراً على الهدية التى منحها اياه ولولاه لما استطاع أن يتعرف على هذه الدمية الجميلة .

هكذا كان يسميها ، أما هو فلم يكن في موقف الذى يستطيع أن يقول شيئاً ، كل الذى قاله مجرد كلمات عابرة تحمل معاني التهنئة ولا شيء غيرها . وفي نهاية الحديث سألته لودي في كلمات قليلة عن وليدها الذى تركته ثم أقفلت السماعة دون انتظار لجـواب ، وعندها هب وليده من نومه مندفعـاً الى أحضانه يداعب بيديه الصـغيرتين وجنتيه ، فـلم يشعر الا ودمعة ساخنة تأخـذ طريقها على صفحة وجهه ، ومنها الى يد الطفل .

وانبسطت أساريره بعد لأى !!! ومضى يداعب طفله في هدوء . واتجه الى التليفون يداعب أرقامه: ليـأتي صـوت عاملـة الترنك هـذه المرة مجيبـة بلامبـالاة : فـترة من الوقت وسنعطيك مستشفى هوستون ، لكن هذه الفترة امتدت الى سـاعات من الزمن قاتلة !! شاء بعدها أن يعتذر عن الذهاب الى الجامعة لالقاء محاضرته ، لأنه لم يكن يملك ساعتها سـوى الاعتـذار ، وطلب من صـديقه ابراهـيم تليفونياً أن يقوم بالقاء المحاضرة نيابة عنه فقبل

في سرور ظاهر ، وأعاد النظر الى التليفون يرمقه بغيظ وقال بينه وبين نفسه : الى متى يظل هذا الجاحد الأسود في صمته !!

وعند الساعة الثانية ظهراً رن جرس التليفون بطريقة متواصلة كان المتحدث في هذه المرة طبيب والده المشرف على علاجه ، الذى أنهى اليه في كلمات قليلة شفاء العجوز من المرض الخطير الذى أصابه وقال له : صدقني : هي معجزة أن يشفى العجوز ، لقد أعطانا نحن الأطباء مثالا فريداً على القدرة والتكيف مع العلاج بشكل لا أستطيع أنا وزملائي أن نقول عنه الا أنه معجزة .

أما والدك فيقول شيئاً آخر . يقول ان الايمان الذى يعشعش في صدره هو الذى أعطاه القوة ليشفى . وضحك الطبيب ثم تابع قوله :

قد يكون ما يقوله والدك صحيحاً لدرجة جعلتنى أتحدث اليه حديثاً طويلا ، عبر صديقك، عنمعانى هذا الايمان الذى يقول عنه ، ولكم كان سرورى عظيماً أن أكتشف أنا العالم بخصائص الجسم

البشري أشياء كثيرة لم أكن أعرفها !!! وهو أمر من الجدة بمكان بالنسبة الي .

لقد تحدثت طويلا الى زوجتى وأصدقائي عما يقوله هذا الرجل ، وبدأت أفكر كثيراً في الطريقة التى أستطيع من خلالها استيعاب ما يقول فيلسوفك العجوز ، فلقد قال لى والدك أن أطلب منك ان أمكن ارسال أكبر مجموعة من الكتب التى تناقش هذا الايمان الذى يعمر صدر والدك .

وأجاب فهد في اقتضاب : شكراً سأفعل ، لكن أين هو العجوز الآن دعه يتحدث الي .

وضحك الطبيب وقال : لقد حاولنا طيلة ليلة الأمس أن نتحدث اليك في الموعد المحدد ، لكنك لم تكن على مقربة من تليفونك فلم نستطع .

ان أباك اليوم خارج المستشفى مع صديقك في شقته ، وسيمضى بضعة أيام فقط ثم يعود اليك معافى مشافى . لقد خرج من المستشفى فى جلبابه الأبيض بعد أن أصر على توديع جميع سكانه .

وبعد الانتهاء من المكالمة التليفونية قام فهد من مكانه وسار الى غرفة والده لتصافح عيناه صورته، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة صافية .

لقد وهبه الله العلم والمعرفة ، ووهبه أيضاً وليده الذى ينمو ويكبر ووهبه أكثر من هذا الأب الطيب ، الذى يكن له كل محبة واحترام ، فلولاه لما استطاع أن يصل الى ما وصل اليه من علم وجاه ومركز .

وسرح بأفكاره بعيداً الى المقهى الصغير في قرية المسيجيد ، ورأى بعين خياله صورة والده يجرى هنا وهناك ملبياً نداء الزبائن في خفة وحركة والى جانب المقهى كانت مباني مدرسة الصحراء التى طليت جدرانها آنذاك ببياض واضح ، يعطى فكرة عن الهدف الذى أنشئت من أجله .

انه يحبها : القرية ، والمدرسة ، وأهلها الطيبين .

من هو الكاتب ؟



- غالب حمزة أبو الفرج.
- ولد بالمدينة المنورة في ٢١ رجب ١٣٤٩ هـ.
- تلقى تعليمه العالي بالقاهرة.
- شغل عدة مناصب هامة في الدولة، كان آخرها منصب المدير العام لشؤون الصحافة والنشر بوزارة الإعلام، لأكثر من عشرين عاماً، ثم اختار أن يتفرغ للأعمال الحرة، وإن ظل وثيق الصلة بالقصة والأدب.
- ساهم بقلمه في نشاطات كثيرة، منها الكتابة الاجتماعية.
- برز في القصة والرواية، فكتب العديد من القصص الصغيرة، وعدداً من الروايات الطويلة..
- صدر له مجموعتان من القصص القصيرة، أولاهما (من بلادي) والثانية (البيت الكبير)، وهي المجموعة الثالثة..
- أول رواية طويلة صدرت له هي (الشياطين الحمر) عن حادث اختطاف وزراء الأوبك، نشرت في عدد من الصحف العربية، كما نشرت موجزاً عنها الصحف الغربية واليابانية، وأفردت جريدة التايمس الأميركية صفحة للحديث عنها.
- له صلات واسعة بعدد كبير من الشخصيات الفكرية في العالم العربي والغربي.
- يحمل عدة أوسمة من بعض البلاد العربية.

دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع

الثمن: ٤ ريالات